

الصراع بين دول المغرب الإسلامي وأثره على عمران الدولة الزيانية

The conflict between the Islamic Maghreb states and its impact on the architecture of the Zayyanid state

وسام لعرافة*	فتيحة شلوق
مخبر التغير الاجتماعي والعلاقات العامة في الجزائر	مخبر الدراسات التاريخية والحضارية للأوراس والصحراء الشرقية عبر العصور
جامعة بسكرة (الجزائر)	جامعة بسكرة (الجزائر)
wissem.larafa@univ-biskra.dz	fatiha.chelloug@univ-biskra.dz

تاريخ الاستلام: 2024/07/02 تاريخ القبول: 2024/10/12

الملخص: بعد سقوط دولة الموحدين ظهرت ثلاث كيانات سياسية متنافسة فيما بينها على السلطة: الدولة الحفصية في المغرب الأدنى، والزيّانية في المغرب الأوسط، والمرينية في المغرب الأقصى، فكانت كل واحدة من هاته الدول ترى أنها الوريث الشرعي لتركّة الموحدين، وسعت إلى تحقيق ذلك، الشيء الذي أدى إلى تأزم العلاقات وبداية الصّراعات السياسية التي تحوّلت فيما بعد إلى مواجهات عسكرية في العديد من المرات. وسنحاول من خلال هذا المقال التطّرق إلى بعض الحملات التي استهدفت الدولة الزيّانية، لنخرج بتصور عام عن مظاهر هذا الصّراع، وكيف حاولت الدولة الزيّانية تدارك الموقف وتثبيت ملكها والتّصدّي لهذه الحملات، وحماية حدودها، وتوسيع رقعة نفوذها، مع الوقوف على آثار هذا الصّراع على عمران الدولة الزيّانية السّلبية منها والإيجابية.

الكلمات المفتاحية: العمران، الصّراع العسكري، المغرب الأوسط، الدولة الزيّانية، العلاقات السياسية.

Abstract: After the collapse of Almohad State, three competing states have appeared willing to dominate the power in the Islamic Maghreb. These states are: the Hafsids state in Lower Maghreb, the Zayyanid state in Middle Maghreb, and the Marinid state in Upper Maghreb. Each one of these states considered itself the eligible and the rightful heir to the Almohad legacy. This latter, led to creating tensions and the beginning of military conflicts. This article attempts to delve into some of the campaigns that targeted the Zayyanid state, aiming at reaching a general understanding and a broad overview of the different aspects framing this conflict. This discussion aims at exploring and investigating the mechanisms by which the Zayyanid state used to face these conflicts, protect its borders and expand its dominated geographies. Moreover, this study offers an examination of the results of this conflict on urban progress in the Zayyanid state on the levels: positive and negative.

Keywords: Urbanization- Military Conflict- Middle Maghreb- Zayyanid State - Political Relations.

Keywords, Keywords, Keywords, Keywords, Keywords (Between 4 and 5 word only)

● مقدمة:

الموقع الجغرافي للدولة الزيانية الواقع بين قوتين عسكريتين (الدولة الحفصية من الجهة الشرقية، والدولة المرينية من الجهة الغربية) جعلها في حروب مستمرة هدّدت ملكها في فترات مبكرة، نتيجة لمحاولة كل من هاتين الدولتين التوسّع على حسابها من أجل فرض السيطرة الأحادية على ملك الموحدين، والتي لا تتم إلا بضم المغرب الأوسط إلى أقاليمها الجغرافية،¹ ولقد برزت السّمة العسكرية لدولة بني زيّان في نشاطها التوسّعي هي الأخرى كنظيرتها من خلال محاولتها حماية حدودها والعمل على توسيع رقعة نفوذها، والدّخول في صراع مع قبائل المغرب الأوسط المنشقين عنها خاصة توجين، ومغراوة، ومع بني حفص، وبني مرين، في المغربين الأدنى والأقصى.

أثّرت الحروب المستمرة على عمران المغرب الأوسط، فغالبا ما كانت هذه الحملات العسكرية وسيلة لخراب المنشآت العمرانية بمختلف أنواعها، على الرغم من حصانة تلمسان الطّبيعية، ومناعة أسوارها، فالعبدري يذكر أن: "أسوارها أوثق الأسوار وأصحّها"²، ونتيجة للنشاط العسكري المكثّف في المغرب الأوسط اهتمّ السلاطين بتشييد التّحصينات الحربية.

وعلى ضوء هذا نطرح الإشكالية التالية: كيف كان تأثير الصراع بين دول المغرب الإسلامي على عمران الدولة الزيانية؟

1. بواعث الصراع

السّبب الأساسي للصّراع بين الدّولة الزيّانية وجارتها هو محاولة التوسّع خارج مجالاتهم الجغرافية، من أجل ملك المغرب بأقاليمه الثلاث، ولقد أخذت كل من هاتين الدولتين بالأسباب لشن حملاتهما العسكرية على الأراضي الواقعة تحت نفوذ الدّولة الزيّانية، التي لم تتوان هي الأخرى عن توجيه جيشها شرقا وغربا عندما تتاح لها الفرصة، وفما يلي سيتم تقديم الأسباب التي تم اتخاذها ذريعة للدخول في الصّراع مع بني زيّان.

1. 1 أسباب الصراع الحفصي الزياني

1. 1. 1 علاقة بني زيّان بالموحدين

يعتبر بني عبد الواد³ من أخلص القبائل الموالية للموحدين،⁴ وعلى الرّغم من استقلال يغمراسن بحكم المغرب الأوسط سنة (633هـ/1236م)⁵، ظل تابعا لهم (اسميا)، كما عمل الخليفة الموحدي الرشيد على تقوية هاته العلاقات ليكون يغمراسن خير حليف وعون لها

¹ عبد الفتاح مقلد الغنيمي - موسوعة تاريخ المغرب العربي (المغرب العربي بين بني حفص، وبني زيّان، وبني مرين، دراسة في التاريخ الإسلامي) - مكتبة مدبولي - الجزء الخامس - الطبعة الأولى - القاهرة - مصر - 1994 - ص ص 115 - 116.

² محمد العبدري البلنسي - الرحلة المغربية - منشورات بونة للبحوث والدراسات - الجزائر - 2007 - ص 28.

³ **بني عبد الواد:** فرع من فروع الطبقة الثانية من قبيلة زناتة البربرية، يرجع تسمية بني عبد الواد (في الأصل عابد الوادي) إلى صفة لجدهم عرف بها لتعبده بالواد، وبقيت تعرف دولتهم بهذا الاسم إلى أن غيرها السلطان أبو حمو موسى الثاني، وأطلق عليها الدولة الزيانية نسبة إلى زيّان والد يغمراسن. **ينظر:** يحيى ابن خلدون ابن أبي بكر - بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد - مطبعة بيدر بونتانه الشرقية - المجلد الأول - الجزائر - 1903 - ص ص 90. حسن الوزان - وصف إفريقيا - ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر - دار الغرب الإسلامي - الجزء الثاني - الطبعة الثانية - بيروت - لبنان - 1983 - ص 7.

⁴ محمد عيسى الحريري - تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس في العصر المريني (610 - 869هـ / 1213 - 1465م) - دار القلم، الطبعة الثانية - الكويت - 1987 - ص 217. **ينظر:** إبراهيم حركات - المغرب عبر التاريخ (من بداية المرينيين إلى نهاية السعديين خلال ق 14 - 20م) - دار الرشد الحديثة - المجلد الثاني - الطبعة الأولى - دار البيضاء - المغرب - 1978 - ص 88.

⁵ يحيى ابن خلدون - مصدر سابق - المجلد الأول - ص 186. **ينظر:** محمد بن عبد الله التنسي - تاريخ بني زيّان ملوك تلمسان (مقتطف من نظم الدر والعقبان في بيان شرف بني زيّان) - تحقيق محمود بوعيداد - منشورات Anep - الجزائر - 2010 - ص 123.

أمام الخطر المبرني،⁶ ولقد عزّز بني عبدا الواد علاقتهم تلك من خلال تبادل السفارات والهدايا وتجديد الطّاعة بين الفترة والأخرى - عند تولي الخليفة الجديد الحكم- ومن ذلك هدية يغمراسن للخليفة الموحد السعيد،⁷ فأقلق هذا التحالف أبا زكريا واعتبر تقاربهم تهديدا له، لهذا قرّر التحرك إلى تلمسان والدخول مع بني زيان في صراع عسكري،⁸ إذ لطالما اعتبر سلطان بني حفص يغمراسن حاجزا يحول بينه وبين ملك الموحدين، وكان يرى أنه إذا تخلّص منه ينفّث الطريق أمامه نحو مراكش.⁹

1. 1. 2 تحريض قبائل المغرب الأوسط

اعتمد يغمراسن في بناء دولته على قبيلة بني عبد الواد بالدرجة الأولى، ثم استعان بالقبائل البربرية والعربية، وانقسمت هذه القبائل بين مؤيد ومعارض، ومنها من تذبذبت في مواقفها حسب ما تقتضيه مصالحها، وكان لهذه القبائل دور في سير الأحداث بالمغرب الأوسط، حيث قام البعض منها بالخروج عن طاعة بني زيان، وتحريض سلاطين الدول المناوئة ضدهم، من ذلك ما قام به رؤساء بني توجين ومغراوة: عبد القوي بن عباس، وولد منديل بن محمد، وتحريضهم للسلطان أبو زكريا على شن حملة ضد تلمسان سنة (640هـ/1242م)¹⁰ وتوعدته زناتة والقبائل العربية من دباب، ورياح، وزغبة، وهوارة، وقرفة، وثوبة بالمساعدة.¹¹ وفي عهد أبي حمو موسى الثاني، خاتته قبائل زغبة وانسحبت من جيشه أثناء حربه مع أبي العباس أحمد، وانضموا إلى صفوف هذا الأخير، فانهزم أبو حمو حينها هزيمة نكراء.¹²

1. 1. 3 التدخل في الشؤون الداخلية

تسبب احتضان الدولة الزيانية للخارجين عن السلطة في فتور العلاقات بين الدولتين، الأمر الذي ساعد على احتدام الصراع، فقد سبق وأن احتضنت الدولة الزيانية سنة (682هـ/1283م) الأمير أبو زكريا ابن إسحاق إبراهيم،¹³ كما احتضنوا سنة (768هـ/1283م) الأمير إبراهيم ابن أبي زكريا ابن أبي عبد الله الحفصي الذي طلب المساعدة من بني زيان ضد ابن عمه صاحب قسنطينة وطالب بالعودة إلى بجاية.¹⁴ وقصد إضعاف الدولة الزيانية، قامت الدولة الحفصية بدعم الخارجين عن سلطتهم، وتشجيع المطالبين بالعرش، ففي سنة (767هـ/1366م) قام السلطان أبو العباس أحمد الحفصي بتحريض أبي زيان بن عثمان، في حربه ضد أبي حمو موسى الثاني¹⁵، كما قام سلاطين بني حفص بالتدخل

⁶ عبد الرحمان ابن خلدون- العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ضبط ومراجعة خليل شحادة وسهيل زكار- دار الفكر- الجزء السابع- بيروت- لبنان- 2000- ص 107.

⁷ ابن عذارى المراكشي- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب- قسم الموحدين- تحقيق محمد إبراهيم الكتاني وآخرون- دار الغرب الإسلامي- دار الثقافة- الطبعة الأولى- بيروت- لبنان- دار البيضاء- المغرب- 1985- ص 360.

⁸ روبرت برونشفيك- تاريخ إفريقية في العهد الحفصي (من القرن 13 إلى نهاية القرن 15هـ)- ترجمة حمادي الساحلي- دار الغرب الإسلامي- الجزء الأول- الطبعة الأولى- بيروت- لبنان- 1988- ص 60.

⁹ محمد لعروسي المطوي- السلطنة الحفصية (تاريخها السياسي ودورها في الغرب الإسلامي)- دار الغرب الإسلامي- بيروت- لبنان- 1986- ص 142.

¹⁰ التنسي- مصدر سابق- ص 127.

¹¹ يحيى ابن خلدون- مصدر سابق- المجلد الأول - ص 112.

¹² أبو العباس أحمد ابن قنفذ القسنطيني- الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية- تقديم وتحقيق محمد الشاذلي النيفر وعبد المجيد التركي- الدر التونسية للنشر- تونس- 1968- ص 185- 186.

¹³ ينظر: محمد لعروسي المطوي- مرجع سابق- ص 456- 457.

¹⁴ أبي عبد الله محمد الزركشي- تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية- تحقيق وتعليق محمد ماضور- المكتبة العتيقة- الطبعة الثانية- تونس- ص 43.

¹⁵ بسام شقدان- تلمسان في العهد الزياني- إشراف هشام أبو رملة- رسالة مقدمة ليل شهادة الماجستير- كلية الدراسات العليا- جامعة النجاح الوطنية- نابلس- فلسطين- 2002- ص 116.

¹⁵ عبد الرحمان ابن خلدون- مصدر سابق- الجزء السابع- ص 172. ينظر: محمد لعروسي المطوي- مرجع سابق- ص 456.

في الشؤون الداخلية للدولة الزيانية بشكل مباشر، وأصبحوا يعزلون ويولون على الحكم من أرادوا، وهذا ما قام به السلطان أبو فارس عندما خلع عبد الواحد وولى مكانه ابن الحمراء.¹⁶

1. 1. 4 تحريض المنشقين على السلطة

قام المنشقين عن السلطة الحفصية بتحريض سلاطين بني زيان من أجل الوصول إلى الحكم، حيث جاء وفد من قبائل المشايخ الحفصيين مستنجدا بالسلطان الزياني ضد سلطان بجاية وقسنطينة، وعلى الفور بدأ الهجوم الزياني على أملاك بني حفص، استطاع خلالها أبو حمو موسى الزياني محاصرة بجاية وضمها ملكه بعض الوقت، وعلى الرغم من رفعه عنها الحصار إلا أنه استطاع الاستيلاء على جبل ثابت عام (713هـ/1313م).¹⁷

وفي سنة (729هـ/1328م) وفد على السلطان الزياني حمزة بن عمر، وبعده عبد الحق بن عثمان المنشق على أبي فارس عبد العزيز يدعوانه إلى شن حملة ضد الدولة الحفصية، مع تأكيدهم لمساندة القبائل العربية في حربه مع بني حفص.¹⁸

1. 2 أسباب الصراع الزياني المريني

الضعائن بين الطرفين قديمة لها جذور ضاربة في أعماق التاريخ، ناشئة عن الجوار في الموطن ثم الملك، وعن المنافسة في الاستقلال برئاسة زناتة، وتحقيق السيطرة الأحادية وبسط النفوذ فكثر الحروب بينهما¹⁹، ضف إلى ذلك جملة من الأسباب ساهمت في احتدام الصراع نذكر منها:

1. 2. 1 الموقف من الدولة الموحدية

أعانت الدولة الزيانية الموحدين في حروبهم ضد الخارجين عن السلطة من ذلك القبائل المرينية،²⁰ فاعتبرت هاته الأخيرة التحالف الموحدية الزياني تأمرا عليها، وتهديدا لسلطانها، وعليه فلقد كان لهذه العلاقة الدور الأساسي في احتدام الصراع بين بني مرين وبني عبد الواد، وتكرر اللقاء العسكري بين الطرفين لصالح الموحدين، من ذلك استنجد أبي دبوس بسلطان تلمسان يغمراسن لصعد الحصار المريني على مراکش سنة (666هـ/1268م)، فراح يشن الغارات على الثغور الشرقية للمغرب الأقصى، مستغلا انشغال يعقوب بحصاره لمراكش فأفرج عنها ونهض للقاء صاحب تلمسان.²¹

¹⁶ التنسي- مصدر سابق- ص 251. ينظر: الزركشي- مصدر سابق- ص 126.

¹⁷ محمد محمد أحمد إسماعيل- الوزارة في أفريقيا في العهد الحفصي (626-986 هـ / 1227-1574م)- مكتبة الثقافة الدينية- القاهرة- مصر- 2015- ص 178.

¹⁸ عبد الرحمان ابن خلدون- مصدر سابق- الجزء السابع- ص 142- 145.

¹⁹ عبد الرحمان ابن خلدون- مصدر سابق- الجزء السابع- ص 282. ينظر: مبارك بن محمد الميلي- مرجع سابق- الجزء الثاني- ص 422. عبد العزيز فيلاي- تلمسان في العهد الزياني- (دراسة

سياسية، عمرانية، إجتماعية، ثقافية)- موفم للنشر- الجزء الأول- الجزائر- 2002- ص 23.

²⁰ شارل أندري جولييان- تاريخ إفريقيا الشمالية (تونس، الجزائر، المغرب الأقصى، من الفتح الإسلامي إلى سنة 1830م)- ترجمة محمد مزالي والبشير بن سلامة- الدار التونسية للنشر- الجزء الثاني-

تونس- 1983- ص 203.

²¹ عبد الرحمان ابن خلدون- مصدر سابق- الجزء السابع- ص 115.

1. 2. 2. علاقة بني زيان بدولة بني الأحمر

تعتبر دولة بني مرين من أكثر الدول مساندة لدولة بني الأحمر، وفي المقابل اتخذ ملوك هذه الأخيرة مواقف متناقضة معها، فتارة يتحالفون مع بني مرين ضد النصارى، وتارة أخرى يتحالفون مع هاته الأخيرة ضد الأولى، وتارة أخرى يتحالفون مع بني زيان ضد بني مرين.²² تميزت العلاقات بين بني زيان وبني الأحمر بالتعاون والتحالف العسكري ضد الدولة المرينية، من خلال شن الغارات على حدودها الشرقية ليكف السلطان عن العبور إلى الأندلس، وبالتالي لن يتمكن من إلحاق غرناطة ملكه،²³ ولقد أثار هذا التحالف حفيظة السلطان المريني مما دفعه إلى توجيه جيشه نحو تلمسان.

1. 2. 3 قبائل المغرب الأوسط

استفاد بني مرين من فتور العلاقة بين الدولة الزيانية وقبيلتي بني توجين، ومغراوة الرافضتان للخضوع والانقياد تحت لوائهم، واعتمدوا عليهما في حركهم مع جارتهم الشرقية، من ذلك مساندة توجين لهم في موقعة إيسلي الثانية سنة (670هـ / 1271م)، وموقعة خرزوة سنة (680هـ / 1281م).²⁴

حتى بني زغبة التي اعتمد عليها بني عبد الواد - كانوا حامية ومخزنا لهم -²⁵ هي الأخرى قامت بالتحالف مع بني مرين، ومن ذلك ما قامت به بطون حميد، وأولاد دياب من بني عامر بني زغبة، سنة (748هـ / 1347م) أثناء حركة أبي الحسن إلى تلمسان. وفي سنة (750هـ / 1349م) انضمت مع أبي الحسن المريني عند زحفه على تلمسان عدد من عرب سويد، والديالم، والعطاف، والحرث، وحصين بقيادة ونزار بن عريف بن يحيى السويدي ومن التف حوله من عرب الثعالب.²⁶

1. 2. 4 التدخل في الشؤون الداخلية

تدخل كلا الطرفين في الشؤون الداخلة لدولة الآخر، من خلال دعم الخارجين عن السلطة سواء كانت قبيلة أو شخصية معينة،²⁷ من ذلك إيواء بني زيان لأولاد إدريس الخارجين عن يوسف أبو يعقوب،²⁸ وفي سنة (687هـ / 1288م) خرج أبو عامر على أبيه ودعا لنفسه، بمساعدة والي مراكش محمد بن عطو الجاناتي، وعندما سمع يوسف أبو يعقوب بذلك توجه إلى مراكش، وتمكن من هزيمته خارج هذه المدينة، فلاد أبو عامر بالفرار رفقة أبي عطو نحو تلمسان التي دخلها سنة (688هـ / 1289م)، فأواهم عثمان بن يغمراسن وأحسن موصلهم، وبعد أن عفا يوسف عن ابنه طلب من سلطان تلمسان تسليمه أبو عطو لكنه أبي عن ذلك،²⁹ وقال: والله لا أسلمه أبدا ولا أبيع حرمي وأترك من استجار بي حتى

²² عبد الفتاح مقلد الغنيمي - مرجع سابق - ص 165.

²³ علي ابن أبي زرع الفاسي - الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس - دار المنصور للطباعة والوراقة - الرباط - المغرب - 1972 - ص 335.

²⁴ عبد الرحمان ابن خلدون - مصدر سابق - الجزء السابع - ص 115 - 119.

²⁵ شارل أندري جوليان - مرجع سابق - الجزء الثاني - ص 103.

²⁶ مصطفى أبو ضيف أحمد - أثر القبائل العربية في الحياة المغربية (خلال عصري الموحدين وبني مرين 524 - 876هـ. 1130 - 1472م) - دار النشر المغربية - الطبعة الأولى - الدار البيضاء - المغرب - 1982 - ص 180 - 183.

²⁷ إبراهيم حركات - مرجع سابق - المجلد الثاني - ص 88.

²⁸ ابن أبي زرع - مصدر سابق - ص 375.

²⁹ عبد الرحمان ابن خلدون - مصدر سابق - الجزء السابع - ص 281 - 282.

أموت فليضع ما بدا له"،³⁰ ولقد أغلظ الرسول في القول فسطا به واعتقله يوسف وعزم على غزو تلمسان،³¹ ونهض إليها من سنة (688هـ/1290م).³²

2. مظاهر الصراع:

2. 1 الصراع الحفصي الزياني

2. 1. 1 استيلاء بني حفص على تلمسان

كانت للسلطان الحفصي أبو زكريا الرغبة القصوى في ملك عرش الموحدين بالمغرب،³³ والذي لن يتحقق إلا بالقضاء على بني زيان في المغرب الأوسط،³⁴ وبناء على ذلك قام بتوجيه جيوشه نحو تلمسان سنة (639هـ/1242م) وتمكن من دخولها بعد أن أذاق أهلها العذاب (قتل نساءها وأطفالها، ونهب الأموال)،³⁵ تأديبا ليغمراسن الرافض لدعوة بني حفص،³⁶ ثم أفرج عنها³⁷ بعد أن سمع بفرار صاحبها نحو الجبال.³⁸ بعدما تمكن أبو زكريا من الاستيلاء على ملك بني زيان، لم يجد من يتولى أمر تلمسان من بعده، نتيجة لتخوف الجميع من يغمراسن الذي ظل متربصا لهم في الجبال، فلم يجد حلا دون التنازل وقبول شفاعاة والدة سلطان بني زيان سوط النساء، وبالفعل تمت المصالحة بينه ويغمراسن، الذي انتصب على تلمسان من جديد،³⁹ مقابل الولاء والطاعة لبني حفص،⁴⁰ ولقد ظلت تلمسان تابعة لبني حفص -اسميا- إلى غاية استيلاء بني مرين على تلمسان وضرب عليها الحصار الطويل.

في سنة (827هـ/1425م) وجه أبو فارس الحفصي جيشه صوب تلمسان وتمكن من حصارها، وولى عليها شخصية من الأسرة الزيانية -محمد ابن أبي تاشفين-⁴¹ الذي أعلن استقلاله سنة (832هـ/1429م)، بعدما هذب الأوضاع وأحس بالقوة التي تمكنه من مجابهة بني حفص، فوجه أبو فارس جيشه مرة أخرى نحو تلمسان بقيادة العليج، رفقة السلطان المخلوع عبد الواحد لكنهم انهزموا، وعاد العليج على إثرها إلى قسنطينة لكن المخلوع قام بجمع الأنصار حوله ورجع إلى تلمسان وتمكن من استرجاعها.⁴²

³⁰ ابن أبي زرع - مصدر سابق - ص 379.

³¹ عبد الرحمان ابن خلدون- مصدر سابق- الجزء السابع- ص 282. ينظر أيضا: أبو العباس أحمد الناصري- الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى- الدولة المرينية- تحقيق وتعليق جعفر الناصري ومحمد الناصري- دار الكتاب- الجزء الثالث- الدار البيضاء- المغرب- 1955- ص 69.

³² أورد التنسي أن نزوله إلى تلمسان كان سنة (698هـ-1300م). ينظر أيضا: التنسي- مصدر سابق- ص 141.

³³ عبد الرحمان ابن خلدون- مصدر سابق- الجزء السادس- ص 390.

³⁴ محمد لعروسي المطوي- مرجع سابق- ص 142.

³⁵ عبد الرحمان ابن خلدون- مصدر سابق- الجزء السابع- ص 107- 108.

³⁶ محمد عبد المنعم الحميري - الروض المعطار في خبر الأقطار- تحقيق إحسان عباس- مكتبة لبنان- الطبعة الثانية- بيروت- لبنان- 1983- ص 136.

³⁷ ابن عذارى المراكشي- مصدر سابق- قسم الموحدين- ص 362. ينظر أيضا: الحميري- مصدر سابق- ص 136.

³⁸ يحيى ابن خلدون- مصدر سابق- المجلد الأول- ص 112. ينظر أيضا: الزركشي- مصدر سابق- ص 29.

³⁹ ابن عذارى المراكشي- مصدر سابق- قسم الموحدين- ص 362. ينظر أيضا: الحميري- مصدر سابق- ص 136.

⁴⁰ روبرار برونشفيك- مرجع سابق- الجزء الأول- ص 60.

⁴¹ الزركشي- مصدر سابق- ص 126. ينظر أيضا: عبد الرحمان بن محمد الجليلي- تاريخ الجزائر العام- دار الأمة- الجزء الثاني- الجزائر- 2009- ص 118.

⁴² الزركشي- مصدر سابق- ص 127- 128. ينظر أيضا: روبرار برونشفيك- مرجع سابق- الجزء الأول- ص 257.

وتكررت حركة أبو فارس نحو تلمسان بعد استيلاء ابن الحمراء عليها، وقتل عبد الواحد.⁴³ وفي سنة (871هـ/ 1466م) تمكن أبو عمر عثمان الحفصي من الاستيلاء على تلمسان في عهد صاحبها المتوكل.⁴⁴

2. 1. 2 الحملات الزبانية على ملك بني حفص

أول حركة قام بها بني زيان صوب ملك بني حفص في عهد أبو السعيد عثمان سنة (686هـ/ 1287م) امتثالا لوصيه والده: "وحاول ما استطعت الاستيلاء على ما جاورك من عمالات الموحد... ولعلك تصير بعض الثغور الشرقية معقلا لذخيرتك"،⁴⁵ ولقد حاصر بجاية حصارا شديدا ثم أفرج عن أهلها بعد أن عث في أرضها من خراب وحرق للزرع.⁴⁶

تمكن بنو زيان في عهد أبي حمو موسى من التوسع شرقا، حيث قاموا بشن حملات متكررة على بجاية التي امتنعت عنه في العديد من المرات، ولكي يتمكن من ضرب تخوم بني حفص كلما تتاح له الفرصة قاموا بالاستيلاء على جبل ثابت سنة (713هـ/ 1313م)، وبنا عليه حصن تامزيدت كقاعدة عسكرية.

وتواصل الضغط الزباني على ملك بني حفص، في عهد أبي تاشفين الذي لطالما رغب في ضم بجاية إلى دائرة نفوذه، فقام بحصارها سنة (720هـ/ 1319م)، وعاود الكرة سنة (721هـ/ 1321م) وسنة (723هـ/ 1323م).⁴⁷

استطاعت جيوش بني زيان من دخول مدينة تونس، ولم يخرجوا منها إلا بعد أن استسلم لهم بنو حفص وأعلنوا الولاء والطاعة، وقدموا لهم الجباية، سنة (730هـ/ 1330م)، وفي طريق عودتهم إلى تلمسان استولوا على بجاية وقسنطينة، بعد أن حاصروها حصارا شديدا، فاشتد الغلاء. فحاول خلال تلك الظروف أبو حفص عمر المحاصر بقسنطينة، إبرام الصلح مع أبي تاشفين لكنه رفض ذلك.⁴⁸

في تلك الأثناء لم يجد أبو بكر الحفصي حليفا له أقوى من بني مرين لصد مساعي بني زيان التوسعية، ووطد هذا التحالف أكثر بالمصاهرة.⁴⁹ وبالفعل تمكن بني حفص من إيقاف حركة بني زيان التوسعية، بفضل الدولة المرينية، التي لم تتوقف بضم المغرب الأوسط فقط سنة (737هـ/ 1336م)⁵⁰، بل راح سلطانها أبو الحسن المريني يضم مناطق المغرب الأدنى تدريجيا - بجاية، وقسنطينة-.⁵¹ وهكذا تمكن من ملك المغرب بأقاليمه الثلاثة.

⁴³التنسي- مصدر سابق- ص 255. ينظر أيضا: الزركشي- مصدر سابق- ص 129. روبرت برونشفيك- مرجع سابق- الجزء الأول- ص 257

⁴⁴ الزركشي- مصدر سابق- ص 158.

⁴⁵ عبد الرحمان ابن خلدون- مصدر سابق- الجزء السابع- ص 123.

⁴⁶ يحيى ابن خلدون- مصدر سابق- المجلد الأول- ص 118.

⁴⁷ عبد الرحمان ابن خلدون- مصدر سابق- الجزء السابع- ص 143- 145.

⁴⁸ عبد العزيز فيلاي- مرجع سابق- الجزء الأول- ص 43.

⁴⁹ الزركشي- مصدر سابق- ص 68. ينظر أيضا: الناصري- مرجع سابق- الجزء الثالث- ص 116- 117. محمد لعروسي المطوي- مرجع سابق- ص 343- 344.

⁵⁰ عبد الرحمان ابن خلدون- مصدر سابق- الجزء السابع- ص 148. ينظر أيضا: الزركشي- مصدر سابق- ص 72. أحمد جبرون- تاريخ المغرب الوسيط والحديث- من الفتح الإسلامي إلى

الاحتلال- دار الأحياء للنشر والتوزيع- طنجة- المغرب- 2023- ص 268.

⁵¹ إسماعيل ابن الأحمر- تاريخ الدولة الزبانية بتلمسان- تحقيق هاني سلامة- مكتبة الثقافة الدينية- الطبعة الأولى- بورسعيد- مصر- 2001- ص 31.

ظهر بعد ذلك نمط جديد في العلاقات الزَّيَّانية الحفصية لاشتراكهم في عداء بني مرين، ويتضح ذلك جليا من خلال احتضان بني حفص للأمير أبو حمو موسى الثاني بعد هروبه من بني مرين ورفضوا تسليمه، كما قدم الحاجب محمد بن تافراكين الدعم الكامل له وأكرم نزله،⁵² وساعده على الرجوع إلى تلمسان التي دخلها سنة (760هـ/ 1359م)⁵³.

بعد تهذيب الأوضاع داخل دولته شرع في التوسع شرقا على حساب من ساعدوه في استرجاع ملكه، وأصبح يتدخل في شؤونهم الداخلية بشكل مباشر من أجل خلق الفرص للسيطرة على دولتهم⁵⁴، وبالفعل تمكن من حصار بجاية، بحجة استيلاء صاحب قسنطينة عليها إثر وفاة والد زوجته أبي عبد الله محمد، ولقد جمعه بأبي العباس⁵⁵ معركة انهزم فيها إثر انسحاب بني زغبة من صفوف جيشه، ثم توجه أبو العباس إلى مدينة تدلس، وأخضعها وضمها للمملكة الحفصية الغربية⁵⁶، وسهل السبل لأبي زيان لتملك تلمسان. لكن سرعان ما استرجعها أبو حمو منه، وأراد اللحاق به بعد أن فر منه، والتوجه من بعدها لحصار بجاية سنة (771هـ/ 1370م)⁵⁷، لكنه توفق عن ذلك بعد نهوض فارس عبد العزيز بن أبي الحسن إليه بغية تأديبه، بسبب إغارته على حدود بني مرين الشرقية⁵⁸.

وعليه فإن الصراع بين بني حفص وبني زيان ظل قائما إلى غاية سقوط الأندلس، فانفردت بعدها كل دولة للدفاع عن سيادتها وحمايتها من الخطر الإسباني.

2. الصراع الزياني المريني

ترتب عن طبيعة العلاقة بين الدولتين الزَّيَّانية والمرينية أثار وخيمة على ساحة المغرب الأوسط، نتيجة لكثرة المواجهات العسكرية بين الطرفين، إذ لم تفك مرين عن حملاتها العسكرية ضد نظيرتها -متخذة بالأسباب التي سبق ذكرها- ضف إلى ذلك تفوقها العسكري عدة وعددا، ومساندة القبائل المناوئة لبني زيان، التي قامت هي الأخرى بشن الغارات على الحدود الشرقية لجارتها في بعض الأحيان. وفيما يلي سوف نقوم بعرض البعض من هذه المواجهات العسكرية:

⁵² أورد التنسي أن السلطان أبي إسحاق بن يحيى بن أبي زكريا (750- 770هـ/ 1350- 1369م) من احتضن أبو حمو موسى دون ابن تافراكين. ينظر: التنسي- مصدر سابق- ص 167.

⁵³ عبد الرحمان ابن خلدون- مصدر سابق- الجزء السابع- ص 163- 164.

⁵⁴ محمد لعروسي المطوي- مرجع سابق- 455.

⁵⁵ كان أبو العباس محتجز أبو زيان محمد بن أبي سعيد عثمان، من أجل المساومة مع بني زيان عند محاولتهم التوسع شرقا، وعندما حاصر أبو حمو بجاية أخرجه لينظم إلى قائد جيشه بشير، لطيب سمعته لدى القبائل المعتمد عليها في عساكر أبو حمو، خاصة بني زغبة. ينظر: عبد الرحمان ابن خلدون- مصدر سابق، الجزء السابع- ص 171- 172. ابن قنفذ القسنطيني- مصدر سابق- ص 185- 186. محمد أحمد إسماعيل- مرجع سابق- ص 180.

⁵⁶ أحمد أبي العباس الشماخ الهنتاتي- مطالع التمام ونصائح الأنام ومنجاة الخواص والعوام في رد القول بإباحة إغرام ذوي الجنايات والإجرام زيادة على ما شرع الله من الحدود والأحكام- تحقيق عبد الخالق أحمدون- منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية- المغرب- 2003- ص 30. ينظر أيضا: محمد لعروسي المطوي- مرجع سابق- ص 459- 460.

⁵⁷ عبد الرحمان ابن خلدون- مصدر سابق- الجزء السابع- ص 142.

⁵⁸ الناصري- مرجع سابق- الجزء الرابع- ص 57. ينظر أيضا: محمد لعروسي المطوي- مرجع سابق- ص 461- 462.

2. 2. 1 حملات بني مرين على ملك بني زيان

2. 2. 1. 1 الحملات العسكرية على عهد يغمراسن

جمعت يغمراسن بمرين معارك عديدة، فكانت الأولى سنة (647هـ/1249م)⁵⁹ والثانية سنة (660هـ/1279م) والثالثة وهي أعنفها سنة (679هـ/1280م) بخزورة،⁶⁰ خرج من جميعها منهزما أمام جيش مرين، وأصبح ملكه مهددا، ولذلك أوصى ابنه عثمان قبل وفاته بعدم التعرض لهم ومسالمتهم، والتحصن خلف أسوار المدينة لتجنب المواجهة العسكرية معهم.

2. 2. 1. 2 حملات أبو يعقوب يوسف

أول حملة قادها أبو يعقوب سنة (689هـ/1290م)،⁶¹ ثم أفرج عنها بعد أن حاصرها أربعين يوما. والثانية سنة (696هـ/1297م) و الثالثة، والرابعة سنة (697هـ/1298م) حاصر فيها تلمسان من كل جانب، ونصب عليها القوس، ولما امتنعت عنه أفرج عنها، وقفل راجعا إلى حضرته، وفي الطريق مر على وجدة وأنزل عليها الحامية من بني عسكر ابن محمد لنظر أخيه أبي بكر، وأمر بشن الغارات بين الحين والآخر، وبالفعل تمكن من إخضاع بعض المناطق التابعة للنفوذ الزياني، من تلك الجهات.

نتيجة لذلك قام كبارات ندرومة بالدخول في طاعة السلطان المريني، وأرغبوه في حصار تلمسان،⁶² فاستجاب لهم وأخذ يحرك جيوشه صوب ملك بني زيان، وضرب عليها الحصار الطويل -دام ثماني سنوات وأربع أشهر وبضع أيام-⁶³ الذي استمر إلى أن هلك يوسف أبو يعقوب سنة (706هـ/1307م) على يد لسعادة⁶⁴.

بعد استرجاع بني زيان ملكهم عقدوا الصلح مع مرين،⁶⁵ ثم أخذ صاحب تلمسان بعدها يهذب أوضاع دولته، وفي تلك الأثناء تمرد على السلطة المرينية عبد الحق بن عثمان ووزيره رحو بن يعقوب، اللذان التحقا ببني زيان للاحتماء بهم ورفضوا تسليمهما لمرين،⁶⁶ فاغتاظ أبو السعيد وقرر غزو تلمسان سنة (714هـ/1314م)،⁶⁷ فلم يجد صاحبها حلا دون التحصن خلف أسوار المدينة كعادة أسلافه.⁶⁸

2. 2. 1. 3 حصار أبي الحسن المريني لتلمسان

بعد وفاة أبو السعيد تولى الأمر من بعده أبو الحسن المريني، وأول ما بدأ به قام بتجديد طلب الشفاعة التي سبق وأرسلها أبيه، فأرسل شفعاؤه لسلطان بني زيان أبا تاشفين،⁶⁹ الذي رفض طلبه واعتبره تدخلا في شؤون دولته. فرد أبو الحسن عن هذا الرفض بتوجيه حملة عسكرية نحو

⁵⁹ تعتبر أول حرب نظامية جمعت بين بني زيان وبني مرين، ولقد تسمت هذه المعركة بموقعة إيسلي، وهذه الأخيرة هي حسن تحيط به الأسوار، يقع بين أنكاد وتلمسان. ينظر أيضا: مارمول كريحال-

إفريقيا- ترجمة محمد حجي وآخرون- دار المعرفة للنشر والتوزيع- الجزء الثاني- الرباط- المغرب- 1989- ص ص 293- 294.

⁶⁰ أورد الناصري أن هذه المعركة دارت رحاها بالملاعب، وهو ميدان لعب الخيل. ينظر: الناصري- مرجع سابق- الجزء الثالث- ص 54.

⁶¹ عبد الرحمان ابن خلدون- مصدر سابق- الجزء السابع- ص 290.

⁶² ابن أبي زرع- مصدر سابق- ص 386. ينظر أيضا: عبد الرحمان ابن خلدون- مصدر سابق- الجزء السابع- ص 291.

⁶³ محي ابن خلدون: مصدر سابق- المجلد الأول- ص 125. ينظر أيضا: التنسي- مصدر سابق- ص 143.

⁶⁴ لمعرفة المزيد. ينظر: ابن أبي زرع- مصدر سابق- ص 388.

⁶⁵ عبد الرحمان ابن خلدون- مصدر سابق- الجزء السابع- ص 132.

⁶⁶ عبد الرحمان ابن خلدون- نفس المصدر- الجزء السابع- ص ص 135- 136.

⁶⁷ محي ابن خلدون- مصدر سابق- المجلد الأول- ص 128.

⁶⁸ ابن أبي زرع- مصدر سابق- ص 399. ينظر أيضا: أحمد جبرون- تاريخ المغرب الوسيط والحديث (من الفتح الإسلامي إلى الاحتلال)- دار الإحياء للنشر والتوزيع- طنجة- المغرب- 2023- ص

268.

⁶⁹ الناصري- مرجع سابق- الجزء الثالث- ص 123.

تلمسان،⁷⁰ سنة (735هـ/1335م)، وفي طريقه اكتسح: المناطق التابعة لبني زيان،⁷¹ ثم توجه إلى العاصمة وعندما استعصت عليه قام بإحياء مدينة المنصورة مرة ثانية، بعد أن هدمها أبو حمو موسى الأول، ليضرب من خلالها تلمسان، دام حصار هذه الأخير لأكثر من ثلاثين شهرا، مات خلالها خلقا كثير،⁷² ولم يدخل إلى العاصمة، إلا بعد أن تفتن لمصدر المياه الذي تتزود به المدينة، فقطعه عنها، وتقدم نحو الملعب وأناخ به في السابع والعشرين من شهر رمضان سنة (737هـ/1336م)،⁷³ وفي اليوم التالي اخترق جيشه أسوار المدينة ودخلها، وكان أبو تاشفين ووزيره، والبعض من شخصيات أسرته في المقدمة أمام باب القصر فقتلوا جميعا، واستولى على ماله وحرمه.⁷⁴

وهكذا تمت إزالة رسم الدولة الزيانية وحل محلهم بنو مرين بالمغرب الأوسط، لمدة زمنية زادت عن اثني عشر سنة.

2. 1. 2. الحملات العسكرية في عهد أبو حمو موسى الثاني

تم إحياء الدولة الزيانية من جديد في عهد الأخوان أبو السعيد وأبو ثابت،⁷⁵ وبدأ عهدهم بعقد الصلح مع مرين لكن سرعان ما تخض صاحبها أبو العنان للاستيلاء على تلمسان سنة (753هـ/1352م)، وقتل صاحبها أبو السعيد،⁷⁶ وبعدها قتل أخاه أبو ثابت.⁷⁷

دخل المغرب الأوسط تحت لواء السلطة المرينية لمدة سبع سنوات، إلى أن تمكن أبو حمو موسى الزياني من استرجاع ملك أجداده سنة (760هـ/1359م)⁷⁸ مستغلا مقتل أبي العنان،⁷⁹ واستبدد الوزراء بأمر مرين.

اتسم عهد أبو حمو موسى الذي دام أكثر من ثلاثين سنة بالنشاط العسكري المكثف، حيث أخذ يضرب على يد كل من سولت له نفسه بالتمرد على السلطة خاصة قبيل توجين ومغراوة، ناهيك عن الأخطار الخارجية، ومن جملة الحملات التي شنتها مرين على ملك بني زيان:

- حملة (760هـ/1359م) شنّها أبي بكر السعيد بن أبي عنان، بتحريض من عرب السويد بعد هزيمتهم أمام أبو حمو بوادي ملال، ونظرا لأنه لم يكن يملك ما يؤهله من عدة وعتاد للمواجهة العسكرية خرجا من تلمسان فارا قبل بلوغ جيوش مرين وكانت مدة تغيبه عن حضرته خمسة وعشرون يوما.
- حملة (761هـ/1360م) في عهد السلطان أبي سالم، وكانت هذه الحركة كرد فعل لفرار والي ذرعة عبد الله بن مسلم الزردالي إلى أبو حمو محملا بالمال.⁸⁰

⁷⁰ قام أبو الحسن بالحد من التمردات والفتن الداخلية داخل دولته، وبعدها قام بالتحرك نحو تلمسان. للمزيد ينظر: الناصري- نفس المرجع- الجزء الثالث- ص 120.

⁷¹ يحيى ابن خلدون- مصدر سابق- المجلد الأول- ص 140. ينظر أيضا: يحيى بوعزيز- تلمسان عاصمة المغرب الأوسط- وزارة الثقافة- الجزائر- 2007- ص 65.

⁷² أبي العباس أحمد القلقشندي- صبح الأعشى- المطبعة الأميرية- الجزء الثامن- القاهرة- مصر- 1915- ص 95.

⁷³ يحيى ابن خلدون- مصدر سابق- المجلد الأول- ص 141. ينظر أيضا: عبد الرحمان ابن خلدون- التعريف بإبن خلدون ورحلته غربا وشرقا- دار الكتاب اللبناني- لبنان- 1979- ص 101. عبد العزيز فيلاي- مرجع سابق- الجزء الأول- ص 46- 47.

⁷⁴ عبد الرحمان ابن خلدون- العبر... مصدر سابق، الجزء السابع- ص 148. ينظر أيضا: يحيى ابن خلدون- مصدر سابق- المجلد الأول- ص 141. إسماعيل ابن الأحمر- روضة النسرين في دولة بني مرين- المطبعة الملكية- الرباط- المغرب- 1962- ص 52. القلقشندي- مصدر سابق- الجزء الثامن- ص 96. الناصري- مرجع سابق، الجزء الثالث- ص 126.

⁷⁵ التنسي- مصدر سابق- ص 161- 162.

⁷⁶ عبد الرحمان ابن خلدون- العبر... مصدر سابق- الجزء السابع- ص 372- 381.

⁷⁷ التنسي- مصدر سابق- ص 164. ينظر أيضا: عبد العزيز فيلاي- مرجع سابق- الجزء الأول- ص 51.

⁷⁸ عبد الحميد حاجيات- أبو حمو موسى الزياني (حياته وأثاره)- الشركة الوطنية للنشر والتوزيع- 1974 الجزائر- ص 88- 89.

⁷⁹ لسان الدين ابن الخطيب- الإحاطة في أخبار غرناطة- تحقيق محمد عبد الله عنان- مكتبة الخانجي- المجلد الرابع- الطبعة الأولى- القاهرة- مصر- 1977- ص 21.

⁸⁰ يحيى ابن خلدون- مصدر سابق- الجزء الثاني- ص 47- 48.

– وفي سنة (771هـ/1371م) خرج عبد العزيز المريني بجيوشه إلى تلمسان، ودخلها في يوم عاشوراء سنة (772هـ/1372م)، أما أبو حمو فلق خرج كعادته فاراً باتجاه الجنوب، وخلال هذه الحملة تمكن صاحب فاس من تملك المغرب الأقصى.⁸¹

2. 2. حركة بني زيان على ملك بني مرين

مقارنة مع الحملات العسكرية التي شنتها الدولة المرينية على ملك بني زيان، فإن حركة هذه الأخيرة، نحو ملك الأولى قليلة، وهذا إن دل على شيء فهو يدل على مدى قدرة مرين على حماية حدودها وكفاءتها العسكرية التي لطالما أشادت بها المصادر التاريخية، ناهيك عن مدى تطور معداتها الحربية حيث ذكر أن أول من استعمل البارود في الحرب من دول المغرب هي الدولة المرينية. وفيما يلي تقديم لبعض الغارات التي شنها بني زيان على بني مرين:

- بعد تدخل مرين في شؤون الدولة الزيانية، قام صاحبها بضربهم في عقر دارهم حيث قام بإرسال العساكر تحت قيادة موسى بن علي إلى نواحي تازة، خربوا خلالها الزروع، والحقول،⁸² كما قام بتوجيه عسكره نحو تاوريرت القريبة من الحدود الزيانية.⁸³
- جمعت بني حفص وبني مرين علاقة طيبة في عهد أبي السعيد عثمان ومن جاء بعده، لتشاركهم في عداء الدولة الزيانية، ووطدوا هذا التحالف بالمصاهرة، فبعد اعتلاء أبو الحسن عرش مرين قام بإرسال طلب الشفاعة لأصهاره، لكن أبا تاشفين رفض طلبه حيث أن ردوده هذه عبارة عن تهديد واضح وصريح، لأبي الحسن المريني، لأنه رأى في هذه المطالب تدخلا مباشرا في شؤونه، وإنذار بتهديد سيادته واستقلاله بالملك.
- اغتاز أبو الحسن من رد أبي تاشفين، وعزم على الانتقام منه، فصار سنة (732هـ/1332م) حتى تجاوز تلمسان من الجهة الشرقية وكان نزوله بتاسلت،⁸⁴ ثم أرسل فريقا من جنده في البحر إلى بجاية لمساندة صهره في حربه مع أبي تاشفين،⁸⁵ الذي أخذ يدبر الحيل ليقطع من قوة شكيمة صاحب فاس، فراسل أخاه أبو علي صاحب سجلماسة، وحرّضه على شقاق أخيه،⁸⁶ وراح أبو تاشفين يضرب حدود مرين الشرقية.⁸⁷ ولما بلغ تاوريرت برز له جيش مرين بقيادة تاشفين بن أبي الحسن، فقفل بعد هزيمته أمامه راجعا إلى عاصمته.
- قام أبو حمو موسى الزياني بشن الغارات على ملك مرين من الجهة الشرقية بقيادة والده أبو يعقوب وعبد الله بن مسلم الزردالي⁸⁸، بالتزامن مع حركة السلطان المريني نحو تلمسان، فأخذ أبو حمو يدوخ ملكهم، واستولى على كل ما جاء أمامه، فاستولى على بلاد ملوية، وكرسف.⁸⁹
- تمكن أبو حمو موسى سنة (766هـ-1365م) من التوسع غربا مستغلا بذلك عدائه مع ونزار بن عريف، ومحمد بن زكراز الساكنان في كرسيف، ودبدو، فقام بتوجيه جيوشه نحو هاتين المنطقتين، فانتهب الزروع، وخرب العمران.⁹⁰

⁸¹ عبد الرحمان ابن خلدون- العبر... مصدر سابق- الجزء السابع- ص 176-177.

⁸² عبد الرحمان ابن خلدون- العبر... نفس المصدر- الجزء السابع- ص 146.

⁸³ يحيى ابن خلدون- المجلد الأول- ص 139.

⁸⁴ عبد الرحمان ابن خلدون- العبر... مصدر سابق- الجزء السابع- ص 147.

⁸⁵ التنسي- مصدر سابق- ص 155. ينظر أيضا: عبد الحميد حاجيات- مرجع سابق- ص 20-21.

⁸⁶ القلقشندي- مصدر سابق- الجزء الثامن- ص 93.

⁸⁷ الناصري- مرجع سابق- الجزء الثالث- ص 120.

⁸⁸ يحيى ابن خلدون- مصدر سابق- المجلد الثاني- ص 56.

⁸⁹ عبد الرحمان ابن خلدون- العبر... مصدر سابق- الجزء السابع- ص 166-167. ينظر أيضا: عبد الرحمان ابن خلدون- التعريف... مصدر سابق- ص 102.

⁹⁰ عبد الرحمان ابن خلدون- العبر... مصدر سابق- الجزء السابع- ص 170-171.

ولقد ظلت العلاقات بين الدولتين الزيانية والمرينية يستحكم فيها العداء، ولم تشهد سوى فترات قليلة من السلام، وفي الغالب كان ذلك مفروضا على بني زيان.

3. أثر الصراع على عمران الدولة الزيانية

3.1 تخريب العمران

اختزل الباحث بلال زيتون السبب وراء حركة الهدم، والتخريب بعد أي مواجهة عسكرية في ساحة المغرب الأوسط إلى رغبة المنتصر في الانتقام، والتأثير على العدو وكسر عزائمه، وتفريق صفوفه، كما اعتبرها شاهد ميداني على الانتصار في المعركة⁹¹، ولقد أوردت لنا المصادر التاريخية في العديد من المواضع تخريب سلاطين بني مرين لعمران تلمسان والمناطق الموالية لها أثناء حملاتهم العسكرية على ملك بني زيان، من ذلك نذكر:

- قام أبو يعقوب يوسف سنة (689هـ/1290م) بعد حصار تلمسان بتخريب العمران ونسف الآثار، وفي سنة (695هـ/1296م) حطم أسوار مدينة وجدة التابعة للملك بني زيان⁹²، كما أن أبوه كان يقوم بتخريب عمرانها في كلما مر عليها، وكانت أكثرها سنة (670هـ/1272م)⁹³، وتكرر تخريب هذه المدينة في عهد أبو الحسن المريني سنة (734هـ/1334م).⁹⁴
- توالى خراب مدينة تلمسان بعد أن استولى عليها أبو السعيد عثمان سنة (714هـ/1314م)،⁹⁵ "وغلّب على ضواحيها ورعاياها، وسار السلطان أبو السعيد في عساكره يتقرى شعارها وبلادها بالحطم والانتساف والعيث".⁹⁶
- قامت جيوش عبد العزيز المريني بعد استيلاءه على تلمسان سنة (772هـ/1371م) بتخريب أحد المناطق الجنوبية المتاخمة لملك بني زيان نتيجة إيوائهم لأبو حمو موسى، يقول عبد الرحمان ابن خلدون في هذا الصدد: "ورجعت العساكر من هنالك، فسلكت على قصور بني عامر بالصحراء قبلة جبل راشد التي منها ربا ولون ساعون إليه فانتهبوها وخربوها وعاثوا فيها".⁹⁷
- قام أبو العباس سلطان مرين بتخريب قصور تلمسان، بتحريض من ونزار بن عريف أمير السويد، التي شيدها أبا حمو الأول وابنه أبا تاشفين ولقد استدعى لها الصناع من الأندلس فبعث إليهما السلطان أبو الوليد صاحب الأندلس فشيّدوا لهم القصور، والمنازل، والبساتين، صعب تشييدها مثلها من بعده. "فأشار ونزار على السلطان أبي العباس بتخريب هذه القصور وأسوار تلمسان انتقاما بزعمه من أبي حمو، وأخذوا بالتأثر منه فيما اعتمده بتخريب قصر الملك بتازي وتخريب قصره هو بمرادة، فأتى عليها الخراب أسرع من لمح البصر".⁹⁸

⁹¹ بلال زيتوني- الحروب في المغرب الأوسط وانعكاساتها على الأوضاع الاقتصادية والعمرانية خلال العهد الزياني (633/ 962هـ)-إشراف يوسف عابد- أطروحة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه- تخصص تاريخ المغرب السياسي والحضاري في العصر الوسيط- جامعة الأمير عبد القادر- قسنطينة- الجزائر- (2022-2023م)- ص ص 179- 184.

⁹² عبد الرحمان ابن خلدون- العبر... مصدر سابق- الجزء السابع- ص ص 284- 290.

⁹³ الناصري- مصدر سابق- الجزء الثالث- ص ص 32- 33.

⁹⁴ عبد الرحمان ابن خلدون- العبر... مصدر سابق- ص 147.

⁹⁵ ابن أبي زرع- مصدر سابق- 399.

⁹⁶ عبد الرحمان ابن خلدون- العبر... مصدر سابق- الجزء السابع- ص 137.

⁹⁷ عبد الرحمان ابن خلدون- العبر... نفس مصدر- الجزء السابع- ص 177.

⁹⁸ عبد الرحمان ابن خلدون- العبر... نفس المصدر- الجزء السابع- ص 191.

كما كان لسلطين نصيب من تخريب عمران المغرب الأوسط، وذلك لطمس أي شاهد عن ارتباط هذه الأخيرة بالسلطة المرينية، ومن ذلك تخريب أبو حمو موسى (707-718هـ/1308-1318م) لمدينة المنصورة التي بناها يوسف بنو يعقوب.⁹⁹ ولأن قبائل المتوطنة في المغرب الأوسط، هي أحد علل الصراع الدامي المفتعل بين بني زيان، ودولتي المغرب الأقصى، والأدنى، فقد عمل السلاطين على إخضاعها من خلال التنظير العسكري الرامي إلى تخريب البنى العمرانية، والأراضي الزراعية الواقعة تحت نفوذ هذه القبائل، والمناطق الخارجة عن السلطة الزيانية.

من مظاهر ذلك ما قام به أبو حمو موسى الثاني سنة (670هـ/1369م) إزاء وهران،¹⁰⁰ من ذلك قول صاحب البستان: "صف على حافاتها المواكب، وأظهر عليها أعدادا وكتائب، وضرب الفساطيط والمضارب"،¹⁰¹ وعندما امتنعت عنه "قاتلهم قتلا شديدا، فلقوا من بأسه نكالا وتنكيلا... وعندما فتحها لم يرد غليله، غلا بدم سور فصبتها، وأسر حماقها ونكبتها".¹⁰²

3. 2 الاهتمام بالمنشآت العمرانية

أجمعت ثلة من المصادر الجغرافية على حصانة تلمسان لطبيعية ومناعة تحصيناتها الحربية من قلاع، وحصون، وأبراج، وأسوار، من ذلك قول ياقوت الحموي: "تلمسان بكسرتين وسكون الميم... وهما مدينتان متجاورتان مسورتان بينهما حجر"¹⁰³. ولقد اهتم سلاطين الدولة الزيانية بتشييد التحصينات الحربية نتيجة للنشاط العسكري المكثف في المغرب الأوسط، ومن هذه المنشآت نذكر:

3. 2. 1 الأسوار

أحيطت مدينة تلمسان في العهد الزياني بعدة أسوار متينة شاهقة، محصنة تحصينا قويا بلغ عددها في بعض جهاتها نحو سبعة أسوار، متباعدة عن بعضها البعض بمسافات قصيرة في حدودها الخارجية¹⁰⁴، كانت هذه الأسوار مبنية في بعض الجهات بالآجر وفي جهات أخرى يرتكز السور على قاعدة من الحجر الصلب، وبعض الجهات بين الرمل والطين والكلس المدكوك، ولقد أمر يغمراسن ببناء عدة أسوار سنة (668هـ/1268م) وأمر بتحصينه من ناحية باب كشوطة - في الجهة الجنوبية الغربية-¹⁰⁵ ولقد حرص بني زيان على بناء الأسوار الدفاعية، للاحتماء خلفها عندما يشتد عليهم الحصار، امثالاً لوصية يغمراسن: "وعليك باللياذ بالجدران متى دلفوا إليك".¹⁰⁶

⁹⁹التنسي- مصدر سابق- ص 145.

¹⁰⁰ عبد الحميد حاجيات- مرجع سابق- ص ص 102-103.

¹⁰¹ مؤلف مجهول- زهر البستان في دولة بني زيان- تحقيق وتقديم بوزياني الدراجي- مؤسسة بوزياني للنشر- الجزء الثاني- الجزائر- 2013- ص 201.

¹⁰² مؤلف مجهول- زهر البستان...- زهر البستان- مصدر سابق- الجزء الثاني- ص ص 202-204.

¹⁰³ شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت الحموي- معجم البلدان- مطبعة السعادة- المجلد الثاني- الطبعة الأولى- مصر- 1906- ص 408.

¹⁰⁴ عبد العزيز فيلاي- مرجع سابق- الجزء الأول- ص 111.

¹⁰⁵ عبد العزيز فيلاي- مرجع سابق- الجزء الأول- ص 23.

¹⁰⁶ عبد الرحمن ابن خلدون- العبر...- مصدر سابق- الجزء السابع- ص 123.

نتيجة لتوالي الحملات العسكرية، و فرض الحصار الطويل، واستخدام الآلات الحربية الثقيلة، كالعردات، والمجانيق¹⁰⁷ كقوس زيار،¹⁰⁸ تسارعت وتيرة الخراب التي طالت حتى أسوار المدينة، ولقد توصلنا لذلك قياسا على ما قام به أبو حمو فور اعتلائه عرش زيان " وإصلاح ما تثلم من تلمسان، وبنى الأسوار والستائر وحفر الخنادق".¹⁰⁹ والستارة عبارة عن حائط قصير دون سور المدينة، يسمى أيضا الفيصل.¹¹⁰ على الرغم من هذه التحصينات إلا أن السلطان أبو السعيد عثمان بن يعقوب تمكن من نفس أسوار زيان، يقول الناصري في هذا الصدد: " فخص إلى تلمسان ... وتحصن أبو حمو بالأسوار وغلب السلطان أبو السعيد على معاقلها وسائر ضواحيها فحطمها حطما ونسفها نسفا".¹¹¹ وتكرر تخريب الأسوار في العديد من المواضع، من ذلك تخريب أبو الحسن المريني لأسوار تلمسان وجدرانها، وأبراجها، وردم خنادقها،¹¹² وتخريبه لأسور وجدة الزيانية "فأضرعوها بالأرض".¹¹³

3. 2. 2 الأبراج

شاد بنو زيان العديد من الأبراج العالية للمراقبة، منها: **برج القشقاش** بني على ضفة وادي متشكانة، و**برج الطاحونة** الواقع في جنوب المدينة، تم بنائه لمراقبة الجهة الجنوبية وحمايتها، وحماية الطاحونة التي تزود أهل المدينة بالقمح، و**برج إمامة** الذي بني على شكل قلعة مرتفعة، الواقعة في الشمال الغربي من المدينة، عان سكانها من حالة اللا استقرار نتيجة للهجمات العسكرية التي شنتها القوى الخارجية، والمناوئين على المدينة، باعتباره الخط الدفاعي الأساسي لتلمسان.¹¹⁴

3. 2. 3 الحصون

كانت الحصون الزيانية نقاط عسكرية تعكس امتداد المجال الحدودي للدولة الزيانية، وقد كان هذا المجال يؤول إلى التقلص عند تخريب هذه الحصون وإجفال الجيوش الزيانية عنها بعد سيطرة العدو، يعرفها أبو حمو موسى الزياني: "أن يكون حصنا حصين لا يرام... اشتمل على الماء ولا خزان والعدد والمكان. جعل فيه ذخائرك وأموالك وأثاثك وأمتعتك وأثقالك... تسكن فيه أجود أجنادك وحمايك وقوادك".¹¹⁵

¹⁰⁷ المنجنيق: جهاز له أشكال وأحجام متنوعة، وأصناف متعددة منها الصغيرة والكبيرة، كما يتنوع من حيث التصميم والآلية، فمنه ما يعتمد على البكرات ومنه ما يعمل بالدائرة التي تحتوي على كرات من الرصاص، وفي بعض الأنواع يمكن أن يتحرك الرجال داخل هذا الجهاز دون الحاجة إلى عدد كبير من الجنود، وهناك أنواع أخرى تصنع بأقواس كبيرة مزودة بموترات، حيث تثبت قبضاتها على الأرض وتشد بأوتار قوية إلى قواعد المنجنيق، فتدفع الحجارة في الكفة ثم يتم إطلاقها بقوة كبيرة. ينظر: الحسن بن عبد الله العباسي - أثار الأول في ترتيب الدول - تحقيق وتعليق عبد الرحمان عميرة - دار الجيل - الطبعة الأولى - بيروت - لبنان - 1989 - ص 365. ابن أرنؤبا الزركاش - الأنيق في المناجيق - تحقيق وتقديم إحسان هندي - دار الكتب الوطنية - الطبعة الأولى - أبو ظبي - الإمارات العربية المتحدة - 2013 - ص ص 21 - 22.

¹⁰⁸ قوس الزيار: نوع من المنجنيق ذو هيكل عظيم، يحمل على أحد عشر بغلا، اعتمد السلطان عليه في حربه مع عثمان. ينظر: الناصري - مرجع سابق - الجزء الثالث - ص ص 76 - 77.

¹⁰⁹ التنسي - مصدر سابق - ص 145.

¹¹⁰ أبو محمد عبد الله التجاني - رحلة التجاني - تقديم حسن حسني عبد الوهاب - الدار العربية للكتاب - ليبيا - تونس - 1981 - ص ص 239 - 240.

¹¹¹ الناصري - مرجع سابق - الجزء الثالث - ص 105.

¹¹² الفلقشندي - مصدر سابق - الجزء الثامن - ص ص 94 - 95.

¹¹³ الناصري - مرجع سابق - الجزء الثالث - ص 124.

¹¹⁴ عبد العزيز فيلاي - مرجع سابق - الجزء الأول - ص ص 111 - 112.

¹¹⁵ أبو حمو موسى الزياني الثاني - واسطة السلوك في سياسة الملوك - تحقيق وتعليق محمد بوترة - دار الشيماء للنشر والتوزيع - دار النعمان للطباعة والنشر - الجزائر - 2012 - ص 154.

ولقد كان أول حصن للدولة الزيانية هو **حصن تلمسان**، ولقد تم ذكر العاصمة باسم حصن تلمسان، في إحدى المراسلات الرسمية بين السلطان أبي تاشفين وصاحب مصر سنة (725هـ/1325م): "إن كتبناه إليكم كتب الله لكم أنجح المقاصد وأرجحها، وأثبتها عزا وأوضحها من حصن تلمسان حرصها الله".¹¹⁶

على الرغم من فشل أبو حمو من حصار بجاية إلا أنه استطاع الاستيلاء على جبل ثابت عام (713هـ/1313م) وبنا عليه **حصن تامريذدكت** بالقرب من بجاية كقاعدة عسكرية لتسهيل الهجوم على بني حفص من الناحية الشرقية¹¹⁷، وبعد التحالف الحفصي المريني تم هدم هذا الحصن¹¹⁸، وشيد أبو تاشفين سنة (729هـ/1329م) في مصب نهر السمام **حصن الياقوتة**.¹¹⁹ و**حصن بكر** على مقربة من بجاية، ليكون خط دفاع أول ونقطة هجوم على بني حفص،¹²⁰ و**حصن تاوريرت**.¹²¹ الفاصل بين ملك بني زيان والدولة المرينية، لكنه أصبح تابعاً لهذه الأخيرة بعد أن قام يوسف سنة (694هـ/1294م) إثر حركته إلى تلمسان، بطرد عامل بني زيان منه، وشرع في بناء الحصن الذي هناك وظل واقفاً على بنائه بنفسه، وحاوطها بسور متين وضع عليه أبواب مصفحة بالحديد.¹²²

كما أولت بني مرين، وبني حفص عناية بالغة بتخريب الحصون عند شن الحملات العسكرية على ثغور المغرب الأوسط، باستعمال كل الآلات الثقيلة، والتدابير الحربية للبلوغ على هذا المقصد، وعليه فإن العديد من الحصون الزيانية تضررت جراء حالة الحرب الدائمة، خلال فترة الثلاث قرون.¹²³

3. 2. 4 الخنادق

كان يحيط بمدينة تلمسان خندقاً عميقاً من الجهة الجنوبية، بموازة وادي متشكاته، تم حفره لدعم السور، كما يوجد بالشمال الغربي من المدينة خندق آخر يعرف **بخندق عين كسور** الواقع بالغرب من الملعب والمنية، خارج باب القارمادين.¹²⁴

3. 2. 5 الأبواب

تشتمل مدينة تلمسان على خمسة أبواب رئيسية واسعة، شيد على جانب كل واحد منه مركزاً للحراسة - برج صغير للمراقبة - ذو شكل مربع، في داخله حجرات صغيرة يقيم بها المكاسون، والحراس. كانت هذه الأبواب مصفحة بالحديد، ومدعمة بحصون قوية صعبة الاختراق، ولها مصاريع حديدية تغلق بها.¹²⁵

¹¹⁶ الفلقشندي - مصدر سابق - الجزء الثامن - ص 86.

¹¹⁷ محمد أحمد إسماعيل - مرجع سابق - ص 178 - 179.

¹¹⁸ عبد الرحمان ابن خلدون - العبر... مصدر سابق - الجزء السابع - ص 146.

¹¹⁹ روبرت برونشفيك - مرجع سابق - الجزء الأول - ص 179.

¹²⁰ عبد الفتاح مقلد الغنيمي - مرجع سابق - الجزء الخامس - ص 176.

¹²¹ **تاوريرت**: مدينة عتيقة بناها الأفاقة القدامى، في أعلى جبل على ضفاف نهر زاء، مسورة بأسوار متينة لكنها تضررت بفعل الحروب بين الدولتين الزيانية والمرينية، لأنها كانت على حدودهما، وكان نصفها لبني مرين والنصف الآخر لبني زيان، ولكل منهما بها عامل من ناحيته. **ينظر**: مارمول كرنخال - مصدر سابق - الجزء الثاني - ص 269. الناصري - مرجع سابق - الجزء الثالث - ص 76.

¹²² عبد الرحمان ابن خلدون - العبر... مصدر سابق - الجزء السابع - ص 290. **ينظر أيضا**: الناصري - مرجع سابق - الجزء الثالث - ص 76.

¹²³ بلال زيتوني - مرجع سابق - ص 210 - 212.

¹²⁴ عبد العزيز فيلاي - مرجع سابق - الجزء الأول - ص 114.

¹²⁵ حسن الوزان - مصدر سابق - الجزء الثاني - ص 20. **ينظر أيضا**: عبد العزيز فيلاي - مرجع سابق - الجزء الأول - ص 112.

- أ. باب العقبة: يقع شرق المدينة، وهو الباب القديم.
- ب. باب سيدي الحلوي: الواقع مال المدينة، اتخذ أسماء عدة: باب الزاوية، سيدي حلوي، باب علي.
- ت. باب القرمادين: يقع في الشمال الغربي من تلمسان، وهو الباب الذي يحمي مدخل المدينة. سمي بهذا الاسم نسبة إلى أفران الفخار، والآجر، والقرميد، التي كانت توجد بالقرب منه.
- ث. باب كشوط: الواقع في الجهة الجنوبية الغربية.
- ج. باب الجياد: يقع في الجهة الجنوبية من المدينة.¹²⁶

3.3 المنشآت المرينية في مجالات ملك الدولة الزيانية

امتاز الفن المريني المعماري باستعمال الطابية والآجر والحجر الغير منحوت، والنقش على الخشب، والجبس، والأدهان، والشماسيات الملونة، والنحاس المموه، وغيره...¹²⁷ ولقد كان لبني مرين نصيب في عمران المغرب الأوسط، فبنوا المنصورة، وشيدوا المدارس والمساجد وغيرها، ودلالة بناء هذه المنشآت هو الحاق تلمسان إلى دائرة نفوذهم.

3.3.1 بناء مدينة المنصورة

ترجع المصادر التاريخية ظروف بناء مدينة المنصورة إلى الحصار الطويل الذي تم ضربه على مدينة تلمسان، ونتيجة لتصدي هذه الأخيرة أمام هجمات يوسف أبو يعقوب المريني، اهتدى إلى بناء مدينة بمحاذاة تلمسان على بعد كيلومترين وبالتالي يتمكن من ضربها¹²⁸، فبدأ ببناء قصره، ثم بنا بالقرب منه جامعاً كبيراً، وشيد له مأذنة رفيعة، وأدار عليهما سورا. ثم أمر الناس بالبناء حول ذلك، فشيّدوا الدور، والمنازل، والقصور، والبساتين، والحمامات، والمارستان، والأسواق. فكانت من أعظم الأمصار¹²⁹. وسماها المنصورة¹³⁰، كما وقد أوردتها ابن الأحمر باسم: "تلمسان الجديدة"¹³¹، وفي سنة (702هـ/1303م) أمر ببناء السور الأعظم على المنصورة¹³²، لكن أبو حمو موسى الأول (707-718هـ/1308-1318م) هدمها بعد الإفراج على تلمسان.¹³³ وقام بتجديدها أبو الحسن المريني أثناء الحصار.

¹²⁶ عبد العزيز فيلاي - مرجع سابق - الجزء الأول - ص 112 - 113.

¹²⁷ للمزيد. ينظر: إبراهيم حركات - مرجع سابق - المجلد الثاني - ص 152.

¹²⁸ إبراهيم حركات - نفس المرجع - المجلد الثاني - ص 154 - 155.

¹²⁹ ابن أبي زرع - مصدر سابق - ص 387.

¹³⁰ عبد الرحمان ابن خلدون - العبر... - مصدر سابق - الجزء السابع - ص 127.

¹³¹ ابن الأحمر - مصدر سابق - 50.

¹³² ابن أبي زرع - مصدر سابق - ص 387.

¹³³ التني - مصدر سابق - ص 145.

3. 3. 2 المساجد

شاد سلاطين بني مرين عدة مساجد في المغرب الأوسط، وامتاز فنههم في هذه المساجد بالدقة وكثرة التزيينات، والمقرصنات، وخاصة حول المحراب،¹³⁴ ولقد وجدوا في بناء هذه المساجد وسيلة للتعامل مع فئات المجتمع الزياني من هذه المساجد:

أ. **مسجد المنصورة:** سماه ابن أبي زرع **الجامع الكبير**، تم بناءه أثناء حصار يوسف بن يعقوب لتلمسان، بمحاذاة قصره سنة (702هـ-1302م) كان يقيم فيه الخطبة¹³⁵.

ب. **مسجد سيدي أبي مدين (العباد):** بناه أبي الحسن المريني سنة (740هـ/1339م)، بالعباد على مقربة من تلمسان وأوكل الإشراف على بنائه لعم ابن مروق الخطيب، مدخله مغطى بالفسيفساء، يتوفر على خمس بلاطات وثلاث أساكيب (أورقة)، ومحراب مزخرف بالآجر، والطين، وسقفه يحتوي على أشكال منضبطة.¹³⁶

ت. **جامع القصة:** بناه أبو الحسن المريني بتلمسان، يقول صاحب المسند في وصفه: "فكان مما لم يعهد منه في سالف الأزمان ولا سبق شكله في قواعد البلدان... المشتمل على المحاسن التي لم يجتمع مثلها في مثله من حسن وضعه وجمال شكله وترتيب رواقه واعتدال صحنه وحسن ستاره..."¹³⁷.

ث. **جامع وجدة:** بناه يوسف أبو يعقوب سنة (696هـ/1297م).¹³⁸

ج. **مسجد سيدي الحلوي:** شيد تخليداً للذكرى المتصوفة أبي عبد الله الشاذلي المعروف بالحلوي، بأمر من السلطان أبي عنان فارس وهو شبيه إلى حد كبير مسجد العباد.¹³⁹

3. 3. 3 المدارس

قصد مرين من بناء المدارس إلى جانب التدريس طبعاً، هو تخصيص مكان لإيواء الطلبة، يتولى الإشراف عليها مقدم يخضع لمراقبة القاضي بعد أن يتم اختياره من قبل الطلبة.¹⁴⁰ ولم يقتصر اهتمام مرين بتشجيع المدارس في حضرتهما فاس فقط، بل شملت سائر المناطق التي خضعت تحت سلطتها، بما فيها بلاد المغرب الأوسط، ولقد أوردت هوارية بكاي في دراستها المقدمة لنيل درجة الماجستير، أن مصير مدارس مرين بالمغرب الأوسط كان أكثر حظاً من مدارس بني زيان، حيث لازال البعض منها إلى وقتنا الحاضر، وإن تعرض جزء كبير منه للتلف -بفعل الزمن والعوامل الطبيعية، والإهمال-.¹⁴¹ من هذه المدارس:

¹³⁴ إبراهيم حركات - مرجع سابق - المجلد الثاني - ص 159.

¹³⁵ ابن أبي زرع - مصدر سابق - ص 387. ينظر أيضاً: مريم سكاكو - سلاطين بني مرين في مدينة تلمسان (تشديد العمارات واستقطاب العلماء... أية علاقة) - دورية كان التاريخية - العدد الثامن والعشرون - (ص 100-107) - جوان، 2015 - الجزائر - ص 101.

¹³⁶ محمد إبن مرزوق التلمساني - المسند الصحيح في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن - دراسة وتحقيق ماريا حنيسوس بيغرا - تقديم محمود بوعباد - الشركة الوطنية للنشر والتوزيع - الجزائر - 1981 - ص 403-404. ينظر أيضاً: إبراهيم حركات - مرجع سابق - المجلد الثاني - ص 160.

¹³⁷ إبن مرزوق التلمساني - مصدر سابق - ص 402.

¹³⁸ ابن أبي زرع - مصدر سابق - 385. ينظر أيضاً: إبراهيم حركات - المرجع السابق - المجلد الثاني - ص 160.

¹³⁹ مريم سكاكو - مرجع سابق - ص 101.

¹⁴⁰ إبراهيم حركات - مرجع سابق - المجلد الثاني - ص 155.

¹⁴¹ هوارية بكاي - العلاقات الزبانية المرينية سياسياً وثقافياً - إشراف مبخوت بوداوية - أطروحة مقدمة لنيل شهادة الماجستير - تخصص تاريخ المغرب الإسلامي - جامعة أبي بكر بلقايد - تلمسان - الجزائر - (2007-2008) - ص 247.

أ. مدرسة سيدي أبي مدين (المدرسة الخلدونية)

شادها السلطان أبو الحسن المريني سنة (747هـ/1347م) خلال فترة استيلائه على تلمسان،¹⁴² في قرية "بالعباد ظاهر تلمسان وحذاء الجامع"¹⁴³ ولقد غلب عليها أيضا اسم المدرسة الخلدونية،¹⁴⁴ تعد من أجمل مدارس المغرب الأوسط، من ذلك وصف حسن الوزان لها بأنها "مدرسة جميلة جدا"،¹⁴⁵ نتيجة لما تمتاز به من زخرفة وفن معماري ذو الأقواس المنكسرة، والآجر المدهون.¹⁴⁶

ب. مدرسة سيدي الحلوى

أسست هذه المدرسة من قبل السلطان أبو عنان المريني أثناء استيلائه على تلمسان سنة (754هـ/1354م)،¹⁴⁷ بالقرب من ضريح الولي الصالح أبي عبد الله الشاذلي الأشبيلي، أين يوجد المسجد، ولكن مدرسة الحلوى لم تكن لها شهرة واسعة بمقارنة بالمدارس الأخرى المتواجدة بالمغرب الأوسط.¹⁴⁸

3. 4 عناية سلاطين بني زيان بالمنشآت العمرانية (القصور، والمساجد، والمدارس)

يعتبر العمران وسيلة لإظهار حضارة الدول ومدى تقدمها، لهذا حرص يغمراسن بن زيان على البناء والتشييد، وقام السلاطين بذلك من بعده، حيث شاد أبو حمو موسى الأول المنشآت العمرانية "وبنى الأسوار والستائر وحفر الخندق.."،¹⁴⁹ وقام بتعمير القصبة، فبالغ في أخذ الرهائن من القبائل التي يقوم بإخضاعها، ومن قومه من بني عبد الواد.¹⁵⁰ وقام ببناء قصره المعروف باسمه، ثم تحول إلى قرية بهذا الاسم في الجنوب الشرقي من واد رهيو.¹⁵¹

¹⁴² الناصري- مرجع سابق- الجزء الثالث- ص 125.

¹⁴³ ابن مرزوق التلمساني- مصدر سابق، ص 406.

¹⁴⁴ نبيل شريخي- دور علماء تلمسان في الحياة السياسية والعلمية في بلاد المغرب الإسلامي (8-9هـ/14-15م)- نور حوران للدراسات والنشر والتراث- الطبعة الأولى- دمشق- سوريا- 2023- ص 37.

¹⁴⁵ حسن الوزان- مصدر سابق- الجزء الثاني- ص 24.

¹⁴⁶ هوارية بكاي- مرجع سابق- 248.

¹⁴⁷ نبيل شريخي- مرجع سابق- 37.

¹⁴⁸ عبد العزيز فيلاي- مرجع سابق- الجزء الأول- ص 144.

¹⁴⁹ التنسي- مصدر سابق- ص 145.

¹⁵⁰ عبد الرحمان ابن خلدون- العبر...- مصدر سابق- الجزء السابع- ص 132. ينظر أيضا: التنسي- مصدر سابق- ص 146. عبد العزيز فيلاي- مرجع سابق- الجزء الأول- ص ص 41- 117.

¹⁵¹ يحيى ابن خلدون- مصدر سابق- المجلد الأول- ص ص 128- 129. ينظر أيضا: التنسي- مصدر سابق- ص ص 146- 147.

كان أبو تاشفين هو الآخر " مولعا بتجوير الدور وتشبيد القصور"،¹⁵² وامتاز عصره بالنهضة العمرانية حيث استقدم إلى جانب اليد العاملة، والمهندسين المحليين، أسرى النصارى المهندسين، وكذلك الأندلسيين، فكانت القصور والمنازل والبساتين على عهده جميلة يصعب تشييد مثلها من بعده.¹⁵³

3. 4. 1 قصر المشور

من أعظم قصور تلمسان هو قصر المشور¹⁵⁴، قام بتشبيده يغمراسن بن زيان جنوب المدينة، واتخذة مقرا رسميا لإقامته، هو ومن جاء من بعده، تبلغ مساحة القصر حوالي مائة وسبع وثلاثون ألف ومائتين متر مربع، وفي سنة (717هـ/1317م) أضاف له أبو حمو موسى الأول قصرا ومسجدا خاصا،¹⁵⁵ يحيط بالمشور سور عالي يضم قصور عدة (صغيرة) ببساتينها وساقياتها، وكلها مبنية بأسلوب معماري رفيع¹⁵⁶. يمتاز المشور بشكله وسعة محتواه، تكسو قاعته وجدرانه الفسيفساء الملونة، مبلط بالجبس الأنيق، والسقوف الخشبية المدهونة، والثريات النحاسية الفخمة.¹⁵⁷

3. 4. 2 المساجد

اشتهرت تلمسان بعدد كبير من المساجد بلغ عددها نحو ستين مسجدا،¹⁵⁸ لكونها تعتبر من أهم المعالم المعمارية الإسلامية، فهي لا تقتصر على العبادة فحسب وإنما تم اتخاذها مركزا للتعليم والدراسة،¹⁵⁹ منذ منتصف القرن الثامن للهجري، وأصبحت الدولة هي من يتدخل في تعيين المدرسين والأساتذة،¹⁶⁰ كما وقد استمرت عناية سلاطين بني زيان بتشبيدها وترميم ما تلثم منها، وأوقفوا الأحباس الكثيرة لها.¹⁶¹ نختزل من ذكر هذه المساجد:

- أ. مسجد سيدي أبي الحسن: أسسه السلطان أبو السعيد عثمان سنة (696هـ/1296م)، نسبته إلى العالم أبي الحسن علي بن يخلف التنسي -من أفضل علماء عصر- يمتاز بسوره، وتيجانه، وسقفه، ومحرايه الذي يعد من أجمل المحارب في العالم يتكون من مشكاة سداسية الأضلاع مزينة بالمقرصات، مستلهم من الهندسة المعمارية والزخرفة الغرناطية.¹⁶²
- ب. مسجد أولاد الإمام أنشأه أبو حمو موسى الأول سنة (710هـ/1310م) من أجل إلحاقه بالمدرسة القديمة، التي شيدها لابني الإمام القادمان من مدينة برشك.

¹⁵² التنسي - نفس المصدر - ص 150

¹⁵³ عبد الرحمان إبن خلدون- العبر... مصدر سابق- الجزء السابع- ص 190- 191. ينظر أيضا: عبد العزيز فيلاي- مرجع سابق- الجزء الأول- ص 117.

¹⁵⁴ المشور: هو المكان الذي يعقد فيه السلطان اجتماعاته لمناقشة شؤون الدولة والرعية، والمكان الذي يقوم فيه باستقبال السفراء والأمراء والأجانب.

¹⁵⁵ عبد العزيز فيلاي- مرجع سابق- الجزء الأول- ص 114- 115.

¹⁵⁶ حسن الوزان- مصدر سابق- الجزء الثاني- ص 20.

¹⁵⁷ للمزيد. ينظر: عبد العزيز فيلاي- مرجع سابق- الجزء الأول- ص 115.

¹⁵⁸ نبيل شريحي- مرجع سابق- ص 36.

¹⁵⁹ حسين مؤنس- المساجد- عالم المعرفة- الكويت- 1981- ص 32.

¹⁶⁰ نبيل شريحي- مرجع سابق- ص 36.

¹⁶¹ أحمد بن يحيى الوئشريسي- المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب إشراف محمد حجي- دار الغرب الإسلامي- الجزء السابع- بيروت- لبنان- ص 237.

¹⁶² عبد العزيز فيلاي- مرجع سابق- الجزء الثاني- ص 146- 147. ينظر أيضا: علي شعوة- المنشآت العمرانية للدولة الزيانية- مجلة قبس للدراسات الإنسانية والاجتماعية- المجلد الأول- العدد

الثاني- (ص 40- 56)- ديسمبر 2017- الجزائر- ص 46.

ت. مسجد إبراهيم المصمودي: أسسه أبو حمو موسى الثاني إلى جانب القبة والمدرسة والزاوية، تكريماً لوالده أبو يعقوب، يحتوي المسجد على مأذنة مربعة الشكل وقبة مزينة بأخاديد تشبه قبة حمام الصباغين بتلمسان.¹⁶³

3.4.3 المدارس

انتشر نظام المدارس منذ مطلع القرن الثامن للهجري، من أشهر المدارس في العهد الزياني هي المدرسة التاشفينية قام بتشييدها أبا تاشفين بالقرب من الجامع الأعظم، من بين مدرسي هذه المدرسة أبو عمران موسى المشدالي،¹⁶⁴ والمدرسة اليعقوبية التي استغرق في بنائها أبو حمو موسى الثاني نحو سنة ونصف، وقام السلطان أبو العباس أحمد -العادل- ببناء مدرسة بزاوية الشيخ الحسن بن مخوف أبركان.¹⁶⁵ إلى جانب قصر المشور، والمساجد، والمدارس، توجد العديد من المنشآت العمرانية في المغرب الأوسط التي شادها السلاطين خلال العهد الزياني، لم نعلم بذكرها لأن المقام لا يتسع لذلك.

● خاتمة:

- بناء على ما تم تقديمه في مقالنا الموسومة بـ: " الصراع بين دول المغرب الإسلامي وأثره على عمران الدولة الزيانية"، توصلنا إلى مجموعة من النتائج هي كالتالي:
- كانت الدولة الزيانية أكثر تضرراً بسبب موقعها الوسطي بين الدولتين الحفصية من الشرق، والمرينية من الغرب وبالتالي تعرضت إلى ضغط مستمر كاد أن يزيل دولتها في فترة متقدمة.
 - تتلخص العلاقة الزيانية الحفصية في رغبة هذه الأخيرة منذ استقلالها بالحكم في فرض سيطرتها على المغرب الإسلامي وعليه يأتي المغرب الأوسط أولى اهتماماتها، وفي المقابل حرص سلاطين بني زيان على التوسع شرقاً كلما أتاحت لهم الفرصة عملاً بوصية يغمراسن.
 - الصراع بين بني مرين وبني زيان قديم ناشئ عن الجوار فيا لموطن، ثم الملك والمنافسة على الاستقلال برئاسة زناتة فكثر الحروب بينهما وخاصة في الجهة الغربية من تلمسان بنواحي وجدة، ونازا، وجنوب سجلماسة، وكان بني زيان خلال ذلك يحاولون تأكيد سيادتهم على هذه المناطق.
 - تمكنت السلطة المرينية من التحكم في بلاد المغرب الأوسط في العديد من المرات إما بشكل مباشر عن طريق إخضاع تلمسان لسلطتها، أو بطريقة غير مباشرة من خلال المساهمة في تنصيب سلاطين من بني عبد الواد مواليين لها.

¹⁶³ عبد العزيز فيلالي- مرجع سابق- الجزء الأول- ص 147.

¹⁶⁴ التنسي- مصدر سابق- ص 151.

¹⁶⁵ عبد العزيز فيلالي- مرجع سابق- الجزء الأول- ص ص 144-145.

- الحملات العسكرية المتكررة على المغرب الأوسط واستخدام الآلات الحربية، سرعت من وتيرة الخراب، باعتبار هذا الأخير شاهد ميداني على الانتصار في المعركة ومؤشر لإخضاع المنطقة.
- لم يقتصر الهدم على التحصينات العسكرية فحسب، بل تعد ذلك حيث قام المنتصر في الحرب بمسح شامل لكل معلم من معالم المغرب الأوسط بما فيها الدور والمنازل.
- كان لسلطين بني زيان عناية بالغة بتشديد التحصينات العسكرية التي تعد أبرز الآثار التي خلفتها الحروب في المغرب الأوسط من قلاع، وحصون، وأبراج، وأسوار، لدرء الخطر المحدق بهم شرقا وغربا.
- امتازت الفترة الممتدة من القرن السابع إلى القرن العاشر للهجري بالنهضة العلمية، وانتشار العلوم سواء عقلية أو نقلية، وأصبحت حواضر المغرب الأوسط مراكز للعلم لهذا شجع سلاطين بني زيان على الحركة الفكرية من خلال تشييد المؤسسات العلمية، خاصة المساجد والمدارس.
- إلى جانب التخريب العمراني كان لبني مرين نصيب في عمران المغرب الأوسط، فبنوا المنصورة، وشيدوا المدارس والمساجد وغيرها، ودلالة بناء هذه المنشآت هو الحاق تلمسان إلى دائرة نفوذهم.